الاستكبار

عناصر الموضوع

مفهوم الاستكبار	١٤٠
الاستكبار في الاستعمال القرآني	١٤١
الألفاظ ذات الصلة	١٤٢
الكبريا والعظمة لله تعالى	١٤٥
أسباب الاستكبار	١٤٦
مظاهر الاستكبار	١٥١
نماذج قرآنية من المستكبرين	١٦٣
أساليب القرآن في عرض الاستكبار	١٧٠
التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين	١٧٥
عاقبة المستكبرين	١٧٨
علاج القرآن للكبر	١٨٢

مفهوم الاستكبار

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (كبر) تأتي على معانٍ متعددة، أهمها:

أنها تدل على خلاف الصغر، والكبر: معظم الأمر، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[1]، والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب،وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني، ومنه ما اعتبر فيه المنزلة والرفعة، نحو: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩].

وأكابر القوم رؤساؤهم، والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته، والجمع كبائر، وأكبرت الشيء: رأيته كبيرًا، والتكبير يقال لذلك، ولتعظيم الله تعالى بقولهم: الله أكبر، ولعبادته واستشعار تعظيمه[2]،والكبرياء: الملك، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٧٨][3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

وقال الراغب الأصفهاني: «الكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»[4].

وقيل أيضًا: الحالة التي يكون عليها الإنسان من الترفع والتعالي على الآخرين واحتقارهم، والتمنع عن قبول الحق معاندة وجحودًا وإنكارًا.

وهذا التعريف يشمل الاستكبار الناتج عن تعالي النفس واستصغارها للغير، سواء أكان ذلك حقًا أم باطلًا، وكذلك الحديث عن عدم قبول الحق والخضوع له، وهذا هو مفهوم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (**الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس**)[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٥٤،١٥٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥٤٣-٥٤٦.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ١٢٥.

(٤) المفردات، ص٥٤٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبد الله بن مسعود. ومعنى (بطر الحق): دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، و(غمط الناس): احتقارهم. شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ٩٠.

الاستكبار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كبر) في القرآن الكريم (١٥٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٩	﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٧٥]
الفعل المضارع	١٣	﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣]
اسم الفاعل	١٣	﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون:٦٧]
المصدر	٢	﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦]

وجاء الاستكبار في القرآن بمعناه في اللغة وهو: استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٠١-١٠٠٢.
(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، الجاحظ، ص ٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاستنكاف:

الاستنكاف لغةً:

نكف عن الشيء نكفًا: امتنع أنفة، وأنكفه: نزهه عما يستنكف منه، واستنكف عن العمل: امتنع مستكبرًا[١].

الاستنكاف اصطلاحًا:

«هو الامتناع والانقباض عن الشيء حمية وعزة»[٢].

الصلة بين الاستكبار والاستنكاف:

فرق الزجاج بين التكبر والاستنكاف فقال: الاستنكاف تكبر فيه أنفة، وليس في الاستكبار ذلك[٣]، فإذا اقترن التكبر مع الأنفة كان استنكافًا؛ لذا كان الاستنكاف أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار.

قال أبو السعود: «والاستكبار دون الاستنكاف المنبيء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه»[٤].

٢ العجب:

العجب لغةً:

العجب بالضم: الزهو والكبر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا، وقيل: المعجب، الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء، وقد أعجب فلان بنفسه إذا ترفع وتكبر فهو معجب برأيه وبنفسه. والاسم: العجب، وهذه المادة مما تدل عليه كبر واستكبار للشيء[٥].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص٩٥٣.
(٢) كتاب العين، الفراهيدي، ٥/ ٣٨٣.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٥٦.
(٤) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢.

الصلة بين الاستكبار والعجب:

«الفرق بين العجب والكبر:أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول: هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها،ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: سُرَّ به، فليس العجب من الكبر في شيء»[١]،فالعجب ليس هو الكبر، وإنما هو أحد أسبابه الداعية إليه[٢].

٣ الاستعلاء:

الاستعلاء لغةً:

العين واللام والحرف المعتل أصل واحد يدل على السمو والارتفاع، ومن ذلك: العلاء والعلو، ويقولون: تعالى النهار، أي: ارتفع[٣].

الاستعلاء اصطلاحًا:

طلب العلو المذموم، وقد يكون طلب العلا أي الرفعة، وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤]، يحتملهما[٤].

الصلة بين الاستكبار والاستعلاء:

الاستعلاء يشترك مع الاستكبار في معناه المجازي، ويفترق عنه في معناه الحقيقي،فأصل الكلمة أن تستعمل في الحقيقة على معنى الارتفاع ضد السفل، ثم تجوز بها عن التكبر والاستيلاء على وجه الظلم[٥]، وقد وصف الله تعالى بالاستعلاء بعض خلقه في الحق تارة، وفي الباطل تارة أخرى،ولم يصف أحدًا بالاستكبار على الوجه المحمود.

٤ العتو:

العتو لغةً:

عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد. والعتا: العصيان، والعاتي: الجبار، وجمعه عتاةٌ، والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة[٦].

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٥٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١١٢.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي، ص٥٩.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٢٥.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٢٧ بتصرف.

العتو اصطلاحًا:

العتو: عبارة عن الإباء والعصيان[١]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل وقد بلغ العتو فيهم مبلغه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٦].

والعتو هنا بمعنى التكبر، أي: «فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه»[٢].

الصلة بين الاستكبار والعتو:

الفرق بين العتو والاستكبار واضح في أن العتو أعلى درجات الاستكبار، فإذا تجاوز المستكبر الحد في العصيان والتمرد، بحيث انغلق قلبه عن الموعظة وسماع النصيحة صار عاتيًا.

٥ التواضع:

التواضع لغةً:

الوضع ضد الرفع، وضعه يضعه وضعًا وموضوعًا،والضعة: الذل والهوان والدناءة، والتواضع: التذلل وتواضع الرجل: ذل[٣].

التواضع اصطلاحًا:

«تذلل القلوب لعلام الغيوب بالتسليم لمجاري أحكام الحق»[٤].

الصلة بين الاستكبار والتواضع:

التواضع ضد الاستكبار، فالأول محمود، والثاني مذموم.

(١) مفاتح الغيب، الرازي، ٤/ ٤٥٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٢٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٣٩٦.
(٤) التوقيف، المناوي، ص٢١٢.

الكبريا والعظمة لله تعالى

الكبرياء والعظمة لا يكونان إلا لله تعالى وحده لا يشاركه فيهما أحد، فليس للعبد الحق في أحدهما -فضلًا عن كليهما-، إذ هما من خصائص العلي الكبير سبحانه؛ لذا تقررت هذه العقيدة في آيات من كتاب الله تعالى، منها الآية الخاتمة لسورة الجاثية: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٧].

بعد أن ذكر سبحانه في مطلع السورة من مظاهر العظمة والكبرياء، وتوعد المستكبرين عن آياته بالعذاب الأليم، وقد تحقق هذا الوعيد قبيل ختام السورة الكريمة فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية:٣١].

فكان سبب عذابهم أنهم نازعوا الله تعالى شيئًا من خصائصه وهو الكبرياء، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الشهير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني.

وقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

إنه سبحانه وتعالى ينزه نفسه عن أن يشاركه أحد في كبريائه، فهو المتكبر وحده، وكل من دونه فهو صغير حقير أمام عظمته جل جلاله.

«إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف؛ لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق.»[2].

اقتران اسم الله الكبير بالعلي:

ورد اسم الله (الكبير) في خمسة مواضع من الكتاب العزيز، وجميع هذه المواضع اقترن فيها هذا الاسم بالعلو؛ ففي سورة الرعد قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٩].

أما ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فقد وردت في أربع سور هي: الحج، لقمان، سبأ، وغافر،

(٢) مفاتح الغيب، الرازي، ٨/ ١٨٣.

وهذه المواضع هي:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٢].

وكما هو ملاحظ من الآيات أن جميعها جاءت في سياق الوحدانية والتفرد في المشيئة، وبما يؤكد أن الكبرياء والعظمة والعلو لله وحده لا شريك له، وأن ما دونه فهو مربوب مقهور.

أسباب الاستكبار

عند النظر في كتاب الله تعالى نجد أن استكبار العبد يرجع إلى أسباب متعددة، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الكفر:

«الكفر: تغطية ما حقه الإظهار، والكفران: ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو النبوة أو الشريعة. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر»[1].

فالكافر: هو من جاءه الحق من الله تعالى على لسان الرسل أو من ينوب منابهم في مهمة الدعوة إلى الله، فاستكبر عن الخضوع والإذعان له، وتمرد وتعالى عليه، وجحد نعمة الدين، وأبى أن يكون من الموحدين التابعين له.

إن الله تعالى قد وصف قومًا من أهل النار بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وأنهم كانوا من الكافرين.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٩].

وذكر تعالى أن عادًا جحدوا آيات الله، وتمادوا في عتوهم وعنادهم، فكان كفرهم

(١) التوقيف، للمناوي، ص٦٠٦.

وجحودهم سببًا في استكبارهم بغير الحق، وكان استكبارهم سببًا في عذابهم وهلاكهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

وأخبر تعالى عن قوم نوح عليه السلام، وقد وصل بهم العناد والجحود والكفر إلى درجة بالغة، فكان ذلك الإصرار على الكفر سببًا لبلوغ الكبر عندهم إلى أعلى الدرجات، حتى صور الله حالهم بصورة تبين ذلك بأبلغ تصوير، فقال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح:٧].

فالكفر هو أحد الأسباب القوية لحصول الكبر، ومانع من الهداية إلى الإيمان.

ثانيًا: اتباع الهوى:

«الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[1].

ويطلق الهوى ويراد به المحبة، كما يطلق على الشيء المحبوب مبالغة، كما يكنى به عن الباطل والجور والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالبًا،»وهوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها، الرائقة عندها، ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج الملكية»[2].

ولما كان الاستكبار مما تهواه النفس وتميل إليه؛ كان الهوى سببًا له، وسبيلًا إليه، وقد أخبر تعالى أن بني إسرائيل تمردوا على الحق لما جاءهم، وكذبوا رسلهم وقتلوهم، وسبب ذلك هوى النفس الذي ساقهم إلى الاستكبار والتمرد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

فهذه الآية الكريمة تكشف عن النفسية اليهودية المتمردة المتكبرة على رسل الله ودعاة الحق، فقد أخبر تعالى أنه أرسل إليهم رسله تترا، مؤيدين بالآيات الباهرات،

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧١٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ٢٤٤.

والمعجزات البينات، وأيدهم بروح القدس جبريل عليه السلام، كل ذلك من أجل هدايتهم إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم، والأخذ بأيديهم من موارد الردى والحرمان إلى نور الهداية والإيمان؛ رحمة بهم، وإشفاقًا عليهم، فبدلًا من أن ينصاعوا لأمر الله، ويستجيبوا لداعي الله، حملتهم الأنفة والكبرياء إلى معاندة كل ما لا يوافق هوى نفوسهم، وقتل كل داعٍ إلى الفضيلة وترك الرذيلة، وهذه النفسية لا تقف عند حدٍ زمني، أو تنقطع عند حدٍ مكاني، وإنما لها صورة مستنسخة عبر العصور وتعاقب الأجيال، لا يكسر كبرياءهم إلا قوة الحق، وقد كسر ومرغت أنوفهم في التراب حتى سمع لأعتاهم قوة عويل.

ثالثًا: إنكار البعث:

بعث الأجساد بعد فنائها عقيدة لا يماري فيها إلا معاند مكابر جهول، فقد ثبت يقينًا بالأدلة النقلية والعقلية وفي الواقع ما يؤكد البعث والنشور، ويبرهن عليه بأبلغ برهان، وفي القرآن-خاصة المكي منه- بيان شافٍ لهذه الحقيقة، ومجادلة قوية لمنكريها، فهي إحدى كبريات العقيدة الثلاث التي كان ينكرها المشركون-التوحيد والرسالات والبعث-.

وقد كشف القرآن الكريم عن أن إنكار البعث سبب من الأسباب التي تؤدي إلى الاستكبار والتعاظم والتمرد على الحق، فقال جل جلاله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان:٢١].

والمراد بقوله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ «يريد: لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك.»[1] فكان إنكارهم للبعث سببًا في إضفاء صفة الاستكبار عليهم، وإلصاق هذه التهمة بهم، وتميزهم بها عن غيرهم.

رابعًا: الحسد:

الحسد مرض من أمراض القلوب المؤدية إلى المهالك؛ ومنه ما هو محمود، وهو ما يسمى (غبطة)، وهو أن يكون لأخيك نعمة لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذا مباح لا إثم فيه.

والآخر مذموم: وهو أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدًا. فالحسد حده: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه، وهو محرم[2].

والمقصود في هذا المبحث من هذين المعنيين هو الثاني؛ لأنه الذي يؤدي إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٩.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/ ٢٣٨.

الكبر؛ كما حدث مع إبليس اللعين حين أمر بالسجود لآدم عليه السلام فأبى واستكبر؛ وعلل امتناعه عن السجود بأنه خير من آدم، واستدل على ذلك بأصل الخلقة، فقاس أصل خلقته بأصل خلقة آدم عليه السلام، فقال: أنا خير منه، وما منعه إلا الكبر، وما كان سببه في الحقيقة إلا الحسد. ويصور القرآن ذلك المشهد فيقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١١-١٣].

قال قتادة: «حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: أنا ناري وهذا طيني، فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم»(١).

وعن جنادة بن أبي أمية قال: أول خطيئة كانت الحسد، حسد إبليس آدم أن يسجد له حين أمر، فحمله الحسد على المعصية(٢).

فالحسد قد تسبب عنه الكبر الذي جعل إبليس يأبى السجود لآدم عليه السلام طاعة لأمر الله، وقبولًا للحق، لذا قال حجة الإسلام الغزالي: «ويدعو الحسد أيضًا إلى جحد الحق، يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدًا وبغيًا عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكنه الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه»(٣)، فالحذر الحذر منه.

خامسًا: القوة المادية:

القوة المادية من أهم الأسباب التي تدعو إلى التكبر والتمرد على الحق، والتعالي على العباد، واستحقارهم والاستخفاف بهم.

ولعل الناظر في كتاب الله تعالى يجد نماذج متعددة حول هذه القضية، فقد ذكر لنا القرآن من شأن موسى وفرعون ما يؤكد أن القوة المجردة عن إيمان صاحبها تسوقه إلى الكبرياء والتعاظم على الآخرين، واحتقارهم واستصغارهم، والنظر إليهم نظر شزر.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١/ ٢٧٠ .
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٣٦.

[المؤمنون:٤٥-٤٨].

فهذه النظرة الفرعونية إلى موسى وقومه على أنهم عبيد له ولملئه تنم عن كبر في نفوسهم، وتعاظم وتعالٍ، وسبب هذه النظرة هو ما هم عليه من القوة المفرطة، والسلطان والفاجر. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الكبر لدى فرعون في موضع آخر؛ حيث قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الزخرف:٥١-٥٣].

فهذه النظرة الدونية من فرعون لموسى عليه السلام سببها ما كان عليه فرعون من القوة والسلطان.

وقد سبق فرعون قوم هود عليه السلام فيما ذكر القرآن الكريم من أخبارهم، وقص علينا من أنبائهم، إذ إنهم استكبروا وجحدوا آيات الله، وكان سبب هذا التمرد والتكبر والطغيان هو ما كانوا عليه من القوة الشديدة، فاغتروا بهذه القوة وتكبروا على الحق، فأهلكهم الله.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[فصلت:١٥-١٦].

ولا عجب أنك ترى في هذا الزمان من أوتي من القوة والعتاد على المستوى العسكري والتكنولوجي ما أبهر المنهزمين نفسيًا وأخلاقيًا وعسكريًا وتكنولوجيًا، حتى اعتقد أكثرهم أن تلك الدولة صاحبة تلك القوة لن تهزم، وأن أحدًا لن يستطيع أن يصمد أمامها، وقاس هؤلاء المنهزمون قوة العدو بقوة المجاهدين، وقضوا بأن لا تكافؤ بين القوتين، وأن الهزيمة محققة للمجاهدين.

ونسي هؤلاء المنهزمون، ونسي كذلك هؤلاء المغترون بقوتهم وعتادهم أن الله هو أشد منهم قوة، وأنه سبحانه مهلك الطغاة المتمردين، والعتاة المتكبرين. إنها سنة الله في الأولين والآخرين، فكما أهلك عادًا الأولى، وفرعون الذي طغى، فإنه مهلكٌ كل متمرد على الحق، متكبر على عباد الله، وحينئذٍ لن تكون له فئة ينصرونه من دون الله، ولن يكون منتصرًا.

مظاهر الاستكبار

بديهي أن يكون المتكبر في المجتمع ظاهرًا، وأن حاله معلومة بصفات تظهر عليه، وتبدو في أفعاله وسلوكه، ولظهور أمر المتكبرين في المجتمع «قال العلماء: كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان.»[1].

والاستكبار له علامات تدل عليه، وأمارات تومئ إلى أن صاحبها من المتكبرين، نقف على تلك المظاهر ونتعرف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ترك العمل بشرع الله:

هذه أول خصلة من خصال المتكبرين، فهم قوم يعاندون الحق، ويتمردون على شرع الله، ويتكبرون على رسل الله والدعاة، فيكون تركهم للعمل بشرع الله من باب أولى.

لذا نجد القرآن الكريم قد ذكر أن أول مظهر من مظاهر الاستكبار هو ترك العمل بشرع الله، والتمرد على طاعته والإذعان لأمره، وهو ما وقع من إبليس اللعين، حيث أبى الخضوع لأمر الله ورفض طاعته فيما أمره به من السجود لآدم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

فكان رفضه للسجود لآدم مظهرًا من مظاهر كبره. وشأن كل من أبى السجود لله تعالى شأن إبليس في رفضه السجود لآدم عليه السلام، لذا ذم الله ناسًا استكبروا عن السجود له حين أمرهم به، ومدح من خضع إلى عظمته وتذلل إليه، فذكرهم بصفة العبادة الدائمة والطاعة المطلقة التي لا يشوبها كبر ولا تمرد على أمره، مرغبًا في الطاعة، ومحذرًا من المخالفة.

فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت:٣٧-٣٨].

وفي سياق آخر أمر الله تعالى بالإصغاء والإنصات لكلامه إذا تلي، وبذكره ذكرًا دائمًا سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، ونهى عن الغفلة عن ذكره، ثم مدح الذين عنده بصفة التواضع وعدم التكبر عن أمر الله وطاعته؛ تعريضًا بمن غفل عن ذكر الله، وأن ترك العمل بشرعه، ومخالفة أمره ومعصيته ليست من شأن العابدين الطائعين، وإنما هي من شأن المستكبرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦].

إن طاعة الله تعالى فيما أمر، والبعد عن كل ما نهى عنه وزجر سمة المؤمنين العابدين، وهي مظهر من مظاهر التواضع والخضوع والتذلل لعظمة الله، وعلى العكس تمامًا فإن الذي يرفض العمل بشرع الله، ويأبى الطاعة المطلقة للخالق الكبير المتعال، يعد فعله هذا مظهرًا من مظاهر التكبر والكبرياء على منهج الله.

ثانيًا: التكذيب:

من مظاهر الاستكبار: التكذيب بكل ما هو حق، والتصديق بالباطل، فإذا رأيت الرجل يكذب بالحق إذ جاءه، ويماري فيه بعدما تبين، فاعلم أنه من المستكبرين، وقد قص علينا القرآن من خبر الأولين، وكشف عن صفة السابقين؛ بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وكذبوا رسل الله بعدما جاءوهم بالبينات، واتهموهم بأنواع الفرى والأباطيل، فاسمع إلى هذا الحوار الذي يظهر فيه تعنت فرعون وملئه، وتكبرهم على موسى وأخيه-عليهما السلام- وتعاليهم عليهما، برغم وضوح المعجزات بما لا يدع مجالًا للمماطلة، لكنهم قوم مستكبرون على الحق مجرمون، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٥-٧٨].

فأي تعنت هذا؟! وأي استكبار ومعاندة؟! تكذيب فاتهام، يتلوهما قرار برفض الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام بحجة التمسك بموروث الآباء والأجداد، وبمبرر زائف ممجوج: وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وهذا لعمري تصرف الجهلاء، لا يقارعون الحجة بالحجة، وإنما يلجأون إلى الاتهامات والأراجيف وسيلة للدفاع عن غيهم وتكذيبهم، فأمرهم عجيب، وشأنهم غريب.

وإن من مظاهر تكذيبهم بالحق أنهم يكفرون بالله ويجعلون له الشريك، رغم وضوح الدلائل وظهور البراهين، فإنهم يبقون على ما هم عليه من الشرك، ويصرون على ما هم عليه من الكفر والجحود، استكبارًا من عند أنفسهم.

قال تعالى شأنه: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢].

«لما ذكر تعالى ما اتصفت به آلهتهم بما ينافي الألوهية، أخبر تعالى أن إله العالم هو واحد لا يتعدد ولا يتجزأ، وأن الذين لا يؤمنون بالجزاء بعد وضوح بطلان أن تكون الإلهية لغيره بل له وحده، هم مستمرون على شركهم، منكرون وحدانيته، مستكبرون عن الإقرار بها؛ لاعتقادهم الإلهية لأصنامهم وتكبرها في الوجود. ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة مبالغة في نسبة الكفر إليهم، إذ عدم التصديق بالجزاء في الآخرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث، إذ من آمن بالبعث يستحيل أن يكذب الله عز وجل.»[1] فظهر بذلك أن إشراكهم مع الله آلهة أخرى، وتكذيبهم به وباليوم الآخر مظهر من مظاهر كبرهم وجحودهم.

وقد توعد الله تعالى هؤلاء المكذبين المصرين على ما هم عليه من الكبر، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾[الجاثية:٧-٨].

وهذا الكبر لا يقف على زمان دون زمان، ولا يختص به مكان دون مكان، وإنما هو متعاقب في الأجيال عبر الأزمان، فلا يكاد يخلو زمان من الأزمنة، أو مكان من الأمكنة من المكذبين المنكرين للحقائق تمردًا وتكبرًا، ألا ترى العالم اليوم؟! كيف يرى الظلم عدلًا ويرى العدل ظلمًا؟! وكيف يبرر للظالم ظلمه؟! بهذه العنجهية المتغطرسة يرون الحقيقة بادية فيتكبرون عليها، ويصرون على غيهم وعنادهم، حين يقتل المسلم أو يدافع عن نفسه وأرضه وعرضه يقولون: إرهابي، وإن شيك الظالم الباغي يستنكرون ويشجبون، بهذه النفسية المتمردة على الحق يبررون لظلمهم في إعلامهم الكاذب، ويسوقون لكذبهم ودجلهم باصطناع البرامج وفبركتها والتلبيس على العامة. فالكذابون والدجالون هم هم، الذين كانوا على عهد موسى عليه السلام، هم أنفسهم الذين كانوا على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهم أنفسهم -على نفس المنهجية- في عصرنا الحالي، لا يتغيرون ولا يتبدلون، الكذب سمتهم، فويل لهم.

ثالثًا: احتقار الناس وظلمهم:

من أبرز المظاهر التي تبدو على المتكبرين احتقارهم للناس وازدراؤهم لهم، لأن التكبر تعالٍ على الناس، فيرى المتكبر نفسه في درجة أعلى، ومنزلة أسمى. إن المتكبرين في حالهم هذه أشبه بحال من كان على قمة جبل والناس من تحته، فهو يراهم صغارًا، ويرونه صغيرًا.

لقد كشفت آيات القرآن الكريم عن هذه

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

السمة عند المتكبرين، وذمت فيهم هذه الخصلة، حينما نظروا إلى المؤمنين الذين اتبعوا رسل الله نظر شزر وازدراء، فقال جل شأنه في حق الملأ من قوم نوح عليه السلام الذين ازدروا المؤمنين بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧].

فرد عليهم نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٣١].

وهذا يوضح لنا أن هذه النظرة من الملأ للمؤمنين مظهرٌ من مظاهر التكبر والتعالي، فكان تكبرهم هذا سببًا في عدم متابعة نبيهم والإيمان برسالته.

وشأن الملأ في نظرتهم هذه إلى المؤمنين التابعين للرسل تكررت من فرعون لموسى عليه السلام، وإن اختلفت في شكلها، لكنها هي هي في مضمونها.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

والمعنى: «﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حقيرٌ، من المهانة: وهي القلة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام.

قاله افتراءً على موسى عليه السلام؛ تنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام من نوع رتةٍ، وقد كانت ذهبت عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه:٣٦]»[1].

وقد تكرر الأمر مع خير الخلق وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، يحتقرونه ويزدرونه ويستهزئون به ويسخرون منه، فقالوا له كمقالة فرعون تلك لموسى عليه السلام، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١].

«وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا، ثم لما بكتوا بتكرير الحجج، ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك، جاؤا بالإنكار من وجه آخر، فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين، وقولهم ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ذكر له على وجه الاستهانة؛ لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليمًا بل إنكارًا، كأنه قيل: هذا الكذب الذي يدعيه لو كان حقًا لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية»[2].

ولهذا قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مستهزئين به، منتقصين مستصغرين

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٥٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٥/ ١٢٠.

له: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

«وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به»[١].

وأشبه بهم حال المنافقين، حيث كانوا على هذه الشاكلة من الاستهزاء والازدراء، حتى ظهر ذلك في سلوكهم، فقد أخبر القرآن عنهم بما يفضح سريرتهم، ويكشف سوأتهم، وذلك في سورة الفاضحة-التوبة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

وكذلك فضحهم في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال جل شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد:١٦].

يقول سيد قطب رحمه الله عن سؤالهم هذا: «... قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم، إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم، أو لا يعني شيئًا يفهم. فهاهم أولاء مع استماعهم له، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء!

كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه -كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم- فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين»[٢].

لم يتغير حال المتكبرين في استصغارهم واحتقارهم وازدرائهم للمؤمنين والدعاة، كأن هذا الأمر فيهم وراثة، ورثوه كابرًا عن كابر، بداية من قوم نوح عليه السلام، إلى قوم موسى عليه السلام، إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا زال الأمر باقٍ إلى يومنا هذا.

ولعل وسائل الإعلام المغرضة والمسيسة التابعة إلى بعض الحكومات المنحرفة، وما يجري فيها من لقاءات وبرامج خير شاهد على استمرار احتقار أهل الفضل والصلاح، والسخرية والاستهزاء من الجماعات العاملة في حقل الدعوة، ليظل هذا مظهرًا فيهم، يعرفون به، وتعلم أحوالهم من خلاله.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٩٧.

(٢) في ظلال القرآن،٦/ ٣٢٩٤.

رابعًا: جحود نعم الله:

امتن الله تعالى على عباده بما آتاهم من نعم لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

وجعل الله تعالى هذه النعم مسخرة لهذا الإنسان وطوعها له، يتصرف فيها بأنواع التصرف.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

وأمر الله تعالى هذا الإنسان بأن يصون هذه النعم ولا يجحدها؛ لأن جحدها مؤذنٌ بزوالها، كما أن شكرها يزيدها وينميها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

إلا أن الإنسان ظلوم كفار، قليل الشكر، كثير الجحود لهذه النعم-إلا من رحم الله.

إن جحود الإنسان لنعم الله تعالى عليه، وعدم شكرها يعد مظهرًا من مظاهر كبره، وعلامة من علامات تمرده ونكران الجميل، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

فكان حريًا به أن يشكر هذه النعم التي أولاها الله إياه بغير حساب، فالله غني عن عباده وهم محتاجون إليه.بيد أن فئة من الناس تكبرت على هذه النعم وجحدتها، فكان عذاب الله شديدًا، فآخذهم على نكرانهم وكفرهم لهذه النعم.

وقد ضرب الله تعالى مثلًا لهذا النوع من الناس بقصة قارون من قوم موسى، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ونصحه الصالحون من قومه ألا تفرح فإن الله لا يحب الفرحين، وذكروه بالآخرة، وأنها خيرٌ وأبقى، وحذروه ونصحوه، لكنه كفر هذه النعمة وجحدها، وأبى أن يرجع فضلها إلى الله، وقال: إنما أوتيته على علم عندي.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

فلما كان كذلك أنزل الله عليه سخطه وعذابه، فخسف به وبداره الأرض ليكون عبرة لمن بعده، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١].

وأعظم نعمة وهبها الله لهذا الإنسان

في الوجود يجحدها المنكرون هي نعمة الإسلام؛ حيث أرسل الله رسله لهذا الإنسان يهدوه إلى الدين القويم والصراط المستقيم، ويرشدوه إلى رضا الله، وإلى ما يحفظ عليه كيانه ومكانته في هذا الوجود، لكن هذا الإنسان واجه دعوة الرسل بالكفران، وكال الاتهامات إلى رسل الله كيلًا، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [فصلت:١٥].

وقوم نوح عليه السلام لما دعاهم نبيهم ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، بدلًا من أن يؤمنوا، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [نوح:٧].

هذا الرفض للدين الذي دعا إليه رسل الله يعد مظهرًا من مظاهر الاستكبار على هذه النعمة العظيمة، وكثيرٌ هم من هذا حالهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ:٣١].

بهذا الكبرياء، على مر العصور وفي كل مكان على تعاقب الزمان.

خامسًا: إكراه المستضعفين على اتباع الباطل:

من مظاهر الاستكبار: إكراه الملأ وكبراء القوم من الظلمة والفسقة للمستضعفين على اتباعهم على باطلهم، وكفرهم كما كفروا ليكونوا سواءً على ملة واحدة، وهذه سمة بارزة في الأقوام الأولين منهم والآخرين، ومن قرأ قصص الأولين وسيرة خير المرسلين وقف على هذا الأمر، وأدرك يقينًا أن الملأ والسادة لا يهنأون ولا يهدأون وهم يجدون ضعفاء القوم على الحق سائرين؛ لأن هذا في نظرهم يهدد مصالحهم، إذ كيف يكون لهم سلطة ونفوذ إذا لم يوجد مستضعفون تحت إمرتهم، يأمرونهم وينهونهم وينفذون لهم ما يريدون؟! إذن مصلحتهم تقتضي أن يكون المستضعفون من القوم على ملتهم وتحت إمرتهم، هم يخططون، والمستضعفون ينفذون.

١. إكراه المستضعفين من قوم شعيب عليه السلام.

وقع الإكراه من الملأ لنبي الله شعيب عليه السلام والمؤمنين معه، حيث هددوه وحذروه بين أن يخرجوه من بلده ووطنه ومن بين أهله، أو أن يعود لدينهم ويدخل في ملتهم-ملة الكفر-؛ لكن الإيمان إذا تملك القلب وتمكن منه، فهيهات هيهات أن يكون للشرك والكفر منه نصيب، هذا ما وقع بين

نبي الله شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين وبين قومه المتكبرين المتمردين على الحق، فقد قص علينا القرآن من نبئهم فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾[الأعراف:٨٨-٨٩].

«هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غلبوا بالحجج والبراهين يفزعون إلى القوة،فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل.»(١) وهذا حال الظالمين في كل زمان.

٢. حوار بين المستكبرين والمستضعفين من قوم صالح عليه السلام.

إن قوم صالح عليه السلام نموذجٌ حيٌّ في هذا الباب، فلنذكر الآيات الكريمات التي تقص علينا من أخبارهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٧].

إنها قمة العنجهية والكبرياء والإباء من السادة والقادة، وفي المقابل ثبات ويقين وصدق مع الله من قبل المستضعفين، فالملأ من قوم صالح عليه السلام -كما يبدو من سياق الآيات- خلوا بالمستضعفين من المؤمنين، وجلسوا إليهم في معزل عن نبي الله صالح عليه السلام، وهددوهم وخوفوهم من متابعته، ولكنه اليقين وثبات الإيمان حينما يتملك القلوب لا تزعزعه التهديدات ولا الوعيدات ولا أي قوة مهما بلغت.

يقول سيد قطب رحمه الله : «وواضح أنه سؤالٌ للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه.ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافًا! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم. إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٢٠٤.

مُؤْمِنُونَ ﴾»[1].

فكأن هذا تحدٍ من المستضعفين للملأ المستكبرين، تحدٍ على الثبات على الحق وعدم الانحياد عنه رغم التهديد والوعيد، بل ورغم مباشرة القتل وتنفيذ الوعيد، تمامًا كما وقع من قوم موسى وفرعون، حيث آمن السحرة برب العالمين، وهددهم فرعون بأن يصلبهم في جذوع النخل، ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، لكنهم ثبتوا على الحق بعدما تبين لهم، وصبروا على أذى فرعون، وفضلوا الباقية على الفانية: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٢-٧٣].

وأيضًا: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

ولا فرق بين هذه العنجهية والكبرياء الذي عليه المتمردون في الأقوام السابقة وما عليه المتمردون والمستكبرون في هذا العالم الظالم اليوم، حينما يجد المسلمون أنفسهم في موجة من التحديات عاتية، وممارسات في حقهم مجحفة، ليس ذلك إلا لأنهم ينشدون نشر العدل والفضيلة، وكف الظلم والرذيلة، ويطلبون الكرامة لهذا الإنسان في هذا الوجود، لا أن تكون الحياة لصنف الظلمة والمستكبرين، والسحق للباقين، فإن هذا لا يرضي أحدًا من المنصفين.

سادسًا: العتو والطغيان:

تلمس وأنت تقرأ سيرة المستكبرين في القرآن الكريم مدى التعالي والعتو والطغيان الذي هم عليه، وتجد فيهم البطش الشديد ضد الأنبياء والمرسلين، وأولياء الله الصالحين، فهذه الصورة تعد مظهرًا بارزًا من مظاهر الاستكبار، بها يعرفون، ومن خلالها يتميزون.

ولعل إكراه المستكبرين للمستضعفين على اتباع باطلهم، يعد نموذجًا حيًا ومثالًا واضحًا لما عليه المستكبرون من عتو وطغيان، إنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الباطل، بل ذهبوا يضلون عباد الله المؤمنين، ويسعون لصدهم عن سبيل الله بمختلف الوسائل والسبل، حتى لو كان ذلك بالتهديد والتعذيب، أو قد يصل أحيانًا إلى درجة القتل،قد بلغوا في ذلك حد التفاني في الصد عن الحق.

فانظر إلى طغيان فرعون، فيما أخبر القرآن عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣١٣-١٣١٤.

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص:٣٨-٣٩].

وقال عنه أيضًا: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

ولذلك قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٧].

فأي استكبار بعد هذا الاستكبار؟!

وأي طغيان بعد هذا الطغيان؟! أن ينازع الله تعالى في ألوهيته وربوبيته فذلك قمة العتو والطغيان والاستكبار.

ويناظره نمرود الذي ادعى ذلك لنفسه، فقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وانظر أيضًا رد الملأ من قوم صالح عليه السلام بعدما تبين لهم الحق: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧].

تحدٍ صارخ، وعتو فاجر، وإصرار على العناد والكفر، فكان عاقبة أمرهم خسرًا.

وقد سبقهم في موقفهم هذا قوم نوح عليه السلام، فقد أمرهم ونهاهم، وبين لهم ما به يتقون، فاحتجوا لكفرهم به بأنه اتبعه الأرذلون، فلما أجابهم بأنه ليس إلا رسول مبين: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

«عدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء:١١٧].

أي: أصروا على تكذيبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي»[1].

فهذا هو حال المستكبرين في كل زمان، فلقد رأينا اليوم أقوامًا لا يختلف حالهم عن سلفهم الأولين، يحذون حذوهم في مواجهة الحق، ويسيرون على خطاهم في الكيد للإسلام والمسلمين، ومظهر العتو والطغيان فيهم بارز للعيان، لا يحتاج تصنيفهم في المستكبرين والمتمردين في هذا الكون في هذا الزمان كثير تفكير أو روية، فإنهم قوم ملكوا من أسباب القوة المادية أو التكنولوجية أو الاقتصادية أو الإعلامية... الخ، ما يجعلهم يتمردون ويظهرون بهذه الغطرسة والكبرياء في هذا العالم.

ولكن الحق في علو وظهور، والباطل في انحدار وانكسار، ولكنكم تستعجلون، وهي سنة الله في الأولين والآخرين، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٣٧.

سابعًا: الاستنكاف عن العبادة:

سبق أن بينا معنى الاستنكاف، وهو أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار، لما فيه من الأنفة والتنقص والاستصغار. والاستنكاف عن عبادة الله تعالى مظهر من مظاهر الاستكبار وعلامة من علاماته؛ لذا توعد الله تعالى المستنكفين عن عبادته بالعذاب الأليم، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

«أي: يأنف تكبرًا، ويعد نفسه كبيرًا عن العبادة»[1].

وهذا المظهر للمستنكفين عن عبادة الله تعالى يبدو واضحًا في قوم هود عليه السلام، إذ أخبرنا القرآن الكريم من حالهم وصفاتهم حينما دعاهم نبي الله هود عليه السلام إلى التوحيد، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فكذبه قومه واتهموه بالسفاهة، وذكرهم بما حدث لقوم نوح عليه السلام حينما كذبوا رسولهم ماذا حدث لهم؟! لكن ردهم عليه كان ينم عن كبر وأنفة ورفض لعبادة الله وحده مع ترك عبادة ما كان عليه الآباء والأجداد، ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

ومثلهم قوم صالح عليه السلام، فعلوا مثل فعلتهم، وردوا على نبيهم بالرد إياه، ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

إن من كان هذا شأنه، وظهرت فيه صفة الاستنكاف عن عبادة الله، يلتمس لاستنكافه هذا المعاذير والحجج التي لا اعتبار لها عند العقلاء- ليعد هذا مظهرًا من مظاهر الاستكبار والتمرد.

ثامنًا: التعاظم عن اتباع الحق:

من مظاهر الاستكبار: التعاظم عن اتباع الحق، والسير على طريق الهدى، واختيار السبيل الموصل إلى جنات الله رب العالمين، يتنكب هؤلاء المستكبرون تلك الطريق، يختارون الضلال على الهدى، والكبرياء على التقى، فبئس الاختيار.

وليس أدل على هذا المظهر مما ورد في شأن المنافقين-أخص بالذكر عبد الله بن أبي بن سلول- الذي كان يرأس حركة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٦٨٢.

صلى الله عليه وسلم إليها، ومما ورد في القرآن الكريم من كشف لسوءتهم وهتك لسترهم، ما ورد في سورة المنافقون. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾[المنافقون:٥].

إنه قد علت أنفتهم، وشمخت أنوفهم -فيما يبدو لهم- إلى الحد الذي جعلهم يتعالون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسعون للصد عن سبيل الله، تعاظمًا منهم عن اتباع الحق، وإمعانًا في الباطل والضلال، وهذه السمة موجودة عند كثير من الناس، تكبرًا كان ذلك صراحة منهم أو ضمنًا؛ لأن من ظهر له الحق ولم يتبعه، وأصر على ما هو عليه من الضلال والانحراف، يعد هذا تعالٍ على الحق، وترفعٌ عن التواضع لعظمة الله فيما تعبد به الناس، ومن رفض أمر الله وفعل خلافه يعد هذا تمردًا على الحق، وتكبرًا على أمر الله، لذا كانت هذه الصفة مظهرًا من مظاهر الاستكبار بغير الحق.

فهذه جملة من مظاهر الاستكبار، حيثما وجدت إحداها في المرء كانت صفة من صفات المستكبرين في الأرض بغير الحق، مؤذنة بنزول سخط الله عليه، وهو في هذه الحالة بين خيارين: إما أن يتركها ويتبع الهدى، ويتواضع لله وللناس، أو أن يتمادى في هذه الكبيرة، وحينئذٍ ليعلم أن فعله هذا يجعله مستحقًا لسخط الله وعقابه. وعلى العاقل أن يعرض نفسه على هذا الميزان ليرى أين يسير، وكيف المصير.

نماذج قرآنية من المستكبرين

قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين أفرادًا وجماعات، وكشف عن أحوالهم وصفاتهم ومصارعهم، وذكر الأسباب التي أدت إلى هلاك من أهلك منهم، ونجاة من أنجى، فكان الاستكبار عن طاعة الله تعالى سببًا رئيسًا من أسباب الهالكين المعذبين، وهاهنا أقف على نماذج من أحوال هؤلاء، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجماعات.

أولًا: أفراد مستكبرون:

هذه أمثلة يضربها لنا القرآن الكريم فيها موعظة بليغة للمعتبرين، وفيها من الزجر والوعيد للمخالفين:

١. إبليس.

وهو أول المستكبرين المستنكفين عن أمر الله، قص الله تعالى علينا من أخباره، وكرر قصته في سورٍ عدةٍ، ليحذرنا منه، ويبين لنا مدى عداوته لهذا الإنسان، وأن هذه العداوة متجذرة فيه وفي ذريته لا محيد له عنها، وهي ترجع في تاريخها إلى لحظة خلق الله آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، وعبادة لله تعالى، لكن اللعين رفض أمر الله، وأبى أن يكون من الساجدين، فمقته الله تعالى، إذ كيف له أن يرفض أمر خالقه؟! لكنه الكبرياء والتعاظم، فسأله الله تعالى عن سبب امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه الله بيديه؟ فقال: أنا خير منه، وقاس أصل خلقة آدم بأصل خلقته، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار في نظره أفضل من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟! فتكبر عن أمر الله، وطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون، فأنظره الله تعالى إلى يوم الوقت المعلوم، فأقسم بعزة الله ليفتنن آدم وذريته أجمعين، وليغوينهم ويضلنهم عن الطريق المستقيم، لكن الله تعالى قد كتب أنه لا سلطان لإبليس على عباد الله المؤمنين، وإنما سلطانه على الذين يتبعونه من الغاوين.

قال تعالى مخبرًا عن ذلك:. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ

﴿١٨﴾ [الأعراف:١١-١٨].

لذا حذر الله تعالى الإنسان من اتباع خطواته والاغترار به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨].

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله تعالى بالحذر منه»[1].

٢. النمرود.

كان نمرود على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو أول من وضع التاج على رأسه، وتجبر في الأرض وادعى الربوبية، وقد آتاه الله الملك فطغى، أي كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه[2].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

ولا شك أن ما وقع من نمرود في المحاجة في جزئها الأول كان سفسطة ومكابرة على الحق.

قال الألوسي: «وأراد عليه السلام بـ ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد اللعين غير ذلك، فقد روي عنه أنه أتى برجلين، فقتل أحدهما وترك الآخر وقال ما قال، ولما كان هذا بمعزل عن المقصود وكان بطلانه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد، والتعرض لإبطال مثل ذلك من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، أعرض الخليل عليه الصلاة والسلام عن إبطاله وأتى بدليل آخر أظهر من الشمس»[3]. فما كان إلا أن بهت الذي كفر، وانقطع عن المحاجة.

٣. فرعون.

فرعون نموذج الطغيان، ضرب الله تعالى به المثل في العلو والاستكبار والافتراء والظلم والفساد، سفك الدماء، وعذب الناس، وعبد بني إسرائيل، ثم زاد في الطغيان والعتو والاستكبار حتى ادعى لنفسه الربوبية والألوهية، فأرسل الله تعالى له موسى عليه السلام، وجعل معه أخاه هارون وزيرًا وردءًا يصدقه، وآتاه من الآيات

(١) تلبيس إبليس، ص٣٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣١٥.
(٣) روح المعاني، ٣/ ٢٧.

ما فيه بلاء مبين، لكنه كذب وعصى، وأدبر يسعى، وقال أنا ربكم الأعلى، بل وقال: ما علمت لكم من إله غيري، ثم قد استهان بموسى عليه السلام وازدراه واستخف به، فقال في كبرياء: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

وجمع السحرة، وبدأت المبارزة، وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل أمر الساحرين، وألقوا جميعهم ساجدين.

قالوا: آمنا برب العالمين، فقال لهم فرعون في كبرياء وتعاظم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

ثم توعدهم بالتعذيب الشديد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:٤٩].

فقد بدت من فرعون مواقف تنم عن كبريائه وتعاظمه:

منها: ادعاؤه الربوبية تارة، والألوهية تارة أخرى.

ومنها: ازدراؤه بموسى، ونظره إليه نظر شزر.

ومنها: تكذيبه بالحق لما جاءه، مع وضوح البينات والآيات.

ومنها: موقفه من السحرة لما آمنوا بموسى، حيث قال لهم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

ومنها: توعده للسحرة لما آمنوا، وتعذيبه لمن آمن.

ومنها: إلصاق التهم بموسى عليه السلام، وبث الإشاعات حوله؛ من اتهامه بالسحر والكذب وغيرها.

كل هذه المواقف تدل على كبريائه وطغيانه واستبداده، وأن ذلك وقع منه للحفاظ على ملكه ورياسته، وبقاء سلطته دون منازع.

٤. قارون.

قارون رجل من بني إسرائيل آتاه الله من الأموال مالا يحصى عددًا، ونعمه بأنواع النعم؛ من كنوز وقصور وخزائن وخدم وغيرها من أنواع النعم، غير أنه بدلًا من أن يتواضع لله ويؤدي حق الله تعالى فيما آتاه من مال، استكبر وتعالى على الناس، وأنكر أن يكون ذلك من الله، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

فاستكبار قارون كان بتكذيبه مبدًا، ثم بإسناده النعمة إلى نفسه وعدم إسناد فضلها إلى المنعم سبحانه وتعالى، ثم من ناحية ثالثة بعدم أداء حقها فيمن له الحق فيها من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض.

٥. هامان.

هامان وزير فرعون، وشريكه في حكم البلاد والاستبداد، وهو يده الطولى في القتل والتعذيب والإفساد والتمرد، لذا كان في رتبته في الاستكبار والعتو، فقال تعالى شأنه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

فعده في جملة المستكبرين من الطغاة.

وفي موضع آخر قال تعالى شأنه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٤-٢٥].

فذكر أنه كان من المكذبين، وقد اتهم موسى بالسحر والكذب، ولما بين لهم موسى أنه رسولٌ من الله أيده بالمعجزات، وقد جاءهم بالحق منه، تمرد واستكبر وعلا وافترى، وراح يقتل أبناء الذين آمنوا، زيادة في العتو والاستكبار.

والآيات الكريمة قد ذكرته مقترنًا بفرعون الطاغية المستكبر في مواضع متعددة، ليدلل على أنه كان لا يقل عن أقرانه من فرعون وقارون في العتو والاستكبار.

ثانيًا: أمم مستكبرة:

لم يقتصر الأمر في الاستكبار على هؤلاء الأفراد وحدهم، بل تعدى ذلك إلى الجماعات والأمم، فقد قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين ما يصفهم بهذه الصفة، من هؤلاء:

١. قوم نوح عليه السلام.

أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم العذاب، فبلغ رسالة الله، ودعا قومه على كل حال؛ سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، لكنهم استكبروا استكبارًا، وعتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسول الله نوحًا عليه السلام، ومكث عليه السلام في دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح:٥-٩].

فلم يترك عليه السلام وقتًا، ولم يدخر جهدًا في دعوة قومه إلى الله، لكنهم استكبروا مصرين على استكبارهم.

ولما أمر الله تعالى نوحًا بصنع الفلك؛ لأن موعد هلاك القوم قد اقترب، فبدأ بصنعها في مكان لا ماء فيه، وكان قومه

يسخرون منه ويستهزئون به.

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

وكان استهزاؤهم هذا بنوح عليه السلام يكشف عن تكبرهم عليه وعلى دعوته.

٢. قوم هود عليه السلام.

دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ كل ما دونه من معبودات، وجاءهم بالبينة المصدقة له في دعواه، فاتهموه بالكذب والسفاهة، وقارعهم بالحجة، وذكرهم بحال من سبقهم ومصيرهم، لكنهم تمادوا في العتو والطغيان، فكذبوه وأنكروا عليه دعواه، وقالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

وقالوا كذلك: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال تعالى مبينًا جحودهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

لذا وصفهم الله تعالى بالاستكبار، وهم مستحقون لهذه الصفة، فقال جل شأنه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت:١٥].

٣. قوم صالح عليه السلام.

تذكر الآيات الكريمة تمرد الملأ من قوم صالح عليه السلام، بعدما قدم لهم البينات، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، وأصبح أمر رسالته واضحًا بلا مراء، غير أنهم أنكروا رسالته، وعتوا على أمر الله، وراحوا يصدون من آمن من قومه من المستضعفين عن دين الله، فقصت علينا الآيات هذا الكبرياء الذي كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٧].

فكان صنيعهم هذا كبرياء وتعاظمًا على الحق، لذا سماهم الله بهذا الاسم الذي يلصق بهم صفة الاستكبار.

٤. قوم لوط عليه السلام.

وقد كان قوم لوط عليه السلام على معصية مخالفة لما عليه الأقوام السابقون بجانب بعض الكبائر، فبعث الله تعالى لهم نبيه لوطًا عليه السلام، فجاءهم مذكرًا لهم

بالله، وناصحًا ومرشدًا إلى ما فيه صلاح الحال في الدنيا والآخرة، وقال لهم بأنهم على فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

لكن قومه كانوا مفترين، فاستكبروا على أمر الله، وأصروا على المعصية.

وقد بدت علامات الكبرياء والتعاظم في ردهم على لوط عليه السلام لما دعاهم لترك الفاحشة.

قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٩].

وقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦].

روى الطبري رحمه الله عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: من أدبار الرجل وأدبار النساء؛ استهزاءً بهم[1].

أي: استهزاءً بلوط عليه السلام والمؤمنين معه في تطهرهم عن هذه الرذيلة، وهذا يدل على تماديهم في الطغيان والاستكبار، حتى سخروا من الحق، وقلبوا الباطل حقًا والحق باطلًا.

وثم موقف آخر من مواقف عتوهم وتكبرهم: حينما جاء الضيف لسيدنا لوط عليه السلام وعلموا بقدومهم، فجاءوه مسرعين يريدون فعل الفاحشة مع ضيفه.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:٧٨].

وفي موضع آخر قال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر:٦٧-٧١].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وجاء أهل مدينة سدوم، وهم قوم لوط، لما سمعوا أن ضيفًا قد ضاف لوطًا مستبشرين بنزولهم مدينتهم، طمعًا منهم في ركوب الفاحشة»[2].

إنها قمة الطغيان والاستكبار، أن يصل بهم الحال إلى هذا الحد؛ بأن يرتكبوا الفاحشة بضيف لوط عليه السلام! إنهم قد

(١) جامع البيان، ١٩/ ٤٨١.
(٢) المصدر السابق، ١٧/ ١١٧.

جعلوا نبيهم في موقف عصيب، حتى قال لهم ما قال.

٥. قوم شعيب عليه السلام.

أرسل الله تعالى شعيبًا إلى مدين وأمرهم بعبادة الله وحده، وحثهم على ترك كل ما من شأنه الفساد والإفساد، وبين لهم أمرًا شنيعًا ظهر فيهم، وهو التطفيف في الموازين.

قال تعالى مخبرًا عنه قوله لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٥-٨٦].

لكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، والنصيحة بالرفض، والتصديق بالتكذيب، وتمادوا في طغيانهم وكبريائهم، حتى قالوا -كما ذكر القرآن- في ردهم على شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

فبردهم هذا الذي يحمل التهديد والوعيد لشعيب عليه السلام والذين آمنوا معه استحقوا وصفهم بالاستكبار.

ومن مواقفهم كذلك صدهم المؤمنين عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠].

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

ومن مواقفهم المجحفة في حق نبيهم التي تدل على تمردهم وتكبرهم على الهدى والطاعة لله ولرسوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

وانظر إلى موقفهم هذا الذي يصوره لنا القرآن الكريم:. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧].

فكل هذه صور ومواقف للتكذيب والاستكبار عن اتباع الحق، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، وقد ذكرها لنا القرآن الكريم لأخذ العبرة منها، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٨.

أساليب القرآن في عرض الاستكبار

جاء الحديث في القرآن الكريم عن الاستكبار على أساليب مختلفة ومتنوعة، منها:

أولًا: الاستفهام الإنكاري.

رهب القرآن الكريم من الاستكبار ونفر منه بأسلوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وهذان نموذجان ممن استكبروا بغير الحق، وأنكر عليهم القرآن استكبارهم ووبخهم عليه:

١. إبليس.

خلق الله تعالى آدم بيديه، وشرفه بسجود الملائكة له، لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، فقال له الله تعالى منكرًا عليه فعله وموبخًا له: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص:٧٥].

أي: «استكبرت الآن أم كنت من قبل من العالين المتكبرين، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لإبليس»[(١)]. والمعنى: «تعظمت عن السجود لآدم، فتركت السجود له استكبارًا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يقول: أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك»[(٢)].

فكما هو واضح في الآية الكريمة أن الله تعالى قد ذم الاستكبار بأسلوب الاستفهام، وهو أبلغ في الحجة، وأوقع في النفس مما لو كان بصيغة الخبر، ولذلك لم يكن من مناص لإبليس للفرار من الإجابة عن السؤال، والإقرار بما في نفسه من حسد لآدم عليه السلام.

٢. بنو إسرائيل.

ذم القرآن الكريم بني إسرائيل على ما وقع منهم من كبر، فذمهم الله تعالى أشد ذم بأبلغ أسلوب، فقال تعالى شأنه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

«وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ منكم ﴿بِمَا لَا﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته، احتقارًا للرسل، واستبعادًا للرسالة»[(٣)].

«والخطاب في ﴿جَاءَكُمْ﴾ يجوز أن يكون عامًا لجميع بني إسرائيل، إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم، والشك والارتياب فيما أتوهم به، أو يكون عائدًا إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك، وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبنائهم، لأنهم راضون بفعلهم،

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٦٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٣٩.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٤٢.

والراضي كالفاعل. وقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وسقوه السم ليقتلوه، وسحروه»[1].

فالآية الكريمة تنكر على بني إسرائيل تكبرهم على الحق واتباعهم الهوى، وذلك بأسلوب قوي رصين، جاء على سبيل الاستفهام، فإن هذا الأمر ما كان ينبغي أن يكون منهم، إنما الذي كان ينبغي هو التصديق برسل الله واتباعهم.

ثانيًا: تقبيح عاقبة المستكبرين.

نفرت الآيات الكريمة من الاستكبار بأسلوب آخر، ذلكم هو تقبيح عاقبة المستكبرين، وأن مثواهم بئيس مذموم، وقد قررت الآيات هذه القضية في آيات عدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:٢٩].

وقال أيضًا: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢، غافر:٧٦].

وقال كذلك: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨].

فأخبر تعالى في فواصل هذه الآيات أن عاقبة هؤلاء المتكبرين مذمومة.

هذا، وقد توعد الله تعالى المستكبرين بسوء المصير، حيث أخبر تعالى شأنه أن عاقبة أمرهم خسرًا، وأن لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة:

فأما في الدنيا: فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن حالهم حين احتضار أحدهم كيف يكون من الهول والفظاعة؟!

فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وأما في الآخرة: فقد أخبر جل جلاله من أحوالهم ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، فقال تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف:٣٦].

وفي موضع آخر قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١].

وبين سبحانه وتعالى أن سبب هذا العذاب هو ما هم عليه من الكبر.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١/ ٤٦٨.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف:٢٠].

وبين الله تعالى أن الذين يستكبرون عن عبادته سبحانه ودعائه سيدخلون جهنم مذلولين صاغرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

كما توعد الله تعالى من أتته آياته ثم أعرض عنها مستكبرًا غير مكترث بها، حاله حال الأصم الذي لا يسمع، مع أنه سمع تلك الآيات، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان:٧].

والوعيد بالعذاب هنا جاء على سبيل التهكم بهم، زيادة في التنكيل بهم، وإيقاع العذاب بهم جسديًا ونفسيًا.

فهذه آيات عديدة تتوعد المستكبرين، وتبين سوء عاقبتهم، فكيف لعاقل أن يتكبر بعد هذا الوعيد الشديد، والتفصيل المبين؟!

ثالثًا: إبطال دعاوى المستكبرين.

هذا أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم المتنوعة في ذم الاستكبار والتنفير منه، فقد جاءت آيات منه تجادل وتحاور وتناقش المتكبرين، وتقرر لهم أن ما هم عليه من التكبر مزعوم لا حقيقة له، فهم أذلاء أمام عظمة الله، حقيرون إذا ما نظروا إلى أصل خلقتهم، ضعفاء مهما أوتوا من قوة، ولذلك نجد القرآن يذكر هؤلاء بأصلهم ومصيرهم تارة، ويبين لهم أنهم ضعفاء مفتقرون إلى خالقهم تارة أخرى، فانظر إلى مجادلة القرآن للمشركين الذين أنكروا بعث الأجساد بعد فنائها، كيف ذكرهم الله تعالى بأصل خلقتهم، ليدلل لهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ورد على كبريائهم وتعاظمهم بأنهم خلقوا من ماء مهين.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٧-٧٩].

فيا من تتكبرون على الله وتعتدون على كماله فتصفونه بالضعف، حين قلتم بعدم بعث الأجساد بعدما صارت ترابًا، انظروا من أين خلقتم ومن أي شيء كان خلقكم؟!

وقال في موضع آخر للذي أعرض عن الذكر بعد إذ جاءه، فلا صدق ولا صلى، بل ذهب إلى أهله يتمطى، متبخترًا افتخارًا، مختالًا في مشيته متكبرًا، فقد ذمه الله تعالى، وأبطل تكبره برده إلى أصل خلقته، فقال: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة:٣٣].

وهذه عاد قوم هود عليه السلام قد اغتروا بقوتهم، واستكبروا في الأرض بغيًا وعدوًا، وقالوا: من أشد منا قوة؟! فرد الله عليهم ادعاءهم وأبطله، وبين لهم أنه سبحانه هو القوي وما دونه ضعيف، واستدل على ضعفهم بأنهم مربوبون لله مخلوقون له، وكيف لهم كمخلوقات لله أن يتكبروا عليه؟!

قال تعالى يحدثنا عن ذلك: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

واستكبارهم في الأرض بغير الحق معناه: أنهم «بغوا وعتوا وعصوا فيها، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد... فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله»[1].

إذن من خلال هذه النماذج المضروبة يتبين لنا أن القرآن الكريم ذم الكبر ونفر منه بأسلوب الحوار والجدل، وهو أسلوب البليغ في تقرير مهمات الأمور، وإلجاء الخصم إلى الاعتراف والإذعان والتسليم، والرجوع إلى الحق.

رابعًا: الثناء على المتواضعين.

من الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في ذم الكبر والمتكبرين: الثناء على نقيضه؛ فقد أثنى الله تعالى على المتواضعين لجلاله وعظمته، وفي المقابل بين أنه سبحانه لا يحب المتكبرين، فقد أثنى سبحانه وتعالى على ملائكته المقربين، فوصفهم بصفة التواضع وعدم التكبر عن عبادته، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦].

فمدح الله سبحانه وتعالى الملائكة بهذا المدح، وكأن السياق تعريض بمن استكبر عن عبادة الله تعالى، فهو كالتعليل للسابق «على معنى: ائتوا بالعبادة على وجه الإخلاص كما أمرتم، فإن لم تأتوا بها كذلك فإنا مغنون عنكم وعن عبادتكم، إن لنا عبادًا مكرمين من شأنهم كذا وكذا»[2]، والاستكبار عن العبادة منافٍ للإخلاص، لذا لا تقبل عبادة المستكبرين، وقد وصفهم الله تعالى بالسجود له سبحانه؛ لما فيه من التذلل والتواضع، والبعد عن الكبرياء والتعاظم.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٦٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٢٢٤-٢٢٥.

وقد أثنى الله تعالى على القسيسين والرهبان الذين تواضعوا لعظمة الله فلم يستكبروا، فقال تعالى شأنه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

أي: «﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات؛ محمود وإن كانت من كافر»[1].

وفي المقابل فإن الله تعالى قد ذم المستكبرين، وقرر أنه لا يحب من كانت هذه صفته، فقال تعالى شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

وعدم محبته سبحانه للشيء يعني أنه يبغضه ويكرهه، والكبر من الأمور التي يبغضها الله تعالى، ومن كان متكبرًا باء بسخط الله ووقع في بغضه، خلافًا لمن تواضع لعظمته سبحانه، فإنه يرجع بمحبة الله له ورضاه عنه.

فهذا الأسلوب في مدح المتواضعين، والثناء عليهم بنفي صفة الكبر عنهم، وبغض المستكبرين وعدم محبتهم -أسلوب من أساليب القرآن الكريم في التنفير من الكبر، والحث على التزام خلق التواضع.

وتتمة لهذا الموضوع فإنه ينبغي الإشارة إلى أن هناك مواضع في القرآن الكريم جاءت بأساليب تؤدي في فحواها معنى الكبر، وتدعو إلى التواضع، وهذه بعضها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة:٣١-٣٣].

ومعنى ذلك: «يتبختر ويختال في مشيته؛ افتخارًا بذلك»[2].

ذكر تعالى مقالة قوم نوح عليه السلام له حينما وعظهم وأمرهم بعبادة الله وحده واتباعه، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود:٢٧].

ولذلك رد عليهم بقوله عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٣١].

قول المشركين في ازدراء النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٢٧٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٤٢٥.

فهذه جملة من الأساليب تؤدي في فحواها أو تشترك مع معنى الاستكبار، والتعبير عن الشيء الواحد بألفاظ ومصطلحات مختلفة وأساليب متعددة يشعر بأهميته وخطورته، وأنه جدير بأن يذكر فلا ينسى، ولا شك أن الكبر من الكبائر في دين الله؛ إذ هي مما يبغضه الله ولا يرضاه، ويتوعد فاعله بالعذاب الشديد.

وهكذا تتنوع أساليب القرآن الكريم في ذم الكبر والتنفير منه، واختلاف الأساليب في تقرير القضية الواحدة فيه بلا شك دلالة واضحة على بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين

إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تبدأ المخاصمات بين الكافرين في جهنم، وتبدأ المعاتبة بين الضالين والمضلين، والسادة والرعية، والمستكبرين والمستضعفين، ويرجع بعضهم إلى بعضٍ القول، كلٌّ يتهم الآخر في أنه كان سبب إضلاله وما هو فيه من العذاب.

وهناك ثلاثة مواقف عرضها القرآن الكريم من مواقف تخاصم أهل النار بين المستضعفين والمستكبرين:

الموقف الأول:

قال الله تعالى:. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

في هذه الآيات «يخبر تعالى عن تمادي

الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتغرونا وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذبٌ ومين»[1].

ولا شك أن هذا العتاب لن يجدي ولن ينفع أو يغني عن صاحبه من الله شيئًا، وقد يسر الله لهم سبيل الإيمان والعمل، ولكنهم كفروا وكذبوا، ثم جاءوا ليتخاصموا في جهنم ويلقي بعضهم اللوم على الآخر في أنه كان سببًا في إضلاله، فيندمون جميعًا حيث لا ينفع الندم.

الموقف الثاني:

قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

«في هذه الآية عرض سريع للموقف وما بعده من استقرار أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة، يقرر مبدأ الوحي والتوحيد والبعث الآخر بأدلة لا ترد.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجت البشرية من قبورها، مؤمنوها وكافروها، صالحوها وفاسدوها، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أي: الرؤساء والموجهون للناس بما لديهم من قوة وسلطان ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أتباعًا في عقائدكم وما تدينون به، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؟ أي: فهل يمكنكم أن ترفعوا عنا بعض العذاب بحكم تبعيتنا لكم؟ فأجابوهم بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥١٩.

﴿هَدَيْنَـٰكُمْ﴾اعترفوا الآن أن الهداية بيد الله وأقروا بذلك، ولكنا ضللنا فأضللناكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾اليوم ﴿أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مخرج من هذا العذاب ولا مهرب»[1].

ففي هذا الموقف نرى صورة الضعفاء مع القادة الذين استكبروا وكانوا لهم تبعًا في الدنيا، فتصور لنا الآية موقف الضعفاء وهم يستجدون الرؤساء والقادة في أن يحملوا عنهم من عذاب الله أي شيء مهما قل، ولكن هيهات هيهات، لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه، وعنده من العذاب ما يكفيه، كل واحد منهم يريد أن يدفع العذاب عن نفسه، فكيف يأخذ من عذاب غيره؟! ولذلك فإن الضعفاء يطلبون المستحيل، فيرد عليهم القادة والمستكبرون بأن الله تعالى لو وفقنا إلى الإيمان به وبرسالاته لدللناكم إليه، ولكن قدر الله سبق علينا أننا كافرون، فلا مفر لنا من عذاب الله سواء أجزعنا أم صبرنا.

الموقف الثالث:

موقف المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين من قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٤٧-٤٨].

«الظاهر أن الضمير عائد على فرعون، وقال ابن عطية: والضمير في قوله: ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾لجميع كفار الأمم»[2].

هذا الموقف يشبه سابقه، حيث وقعت المحاجة بين المستكبرين والمستضعفين من الكفرة، وقد وقعت بينهم بينما هم في نار جهنم يعذبون. الضعفاء كعادتهم هم الذين يبدأون الحوار والمجادلة؛ لأنهم يعتقدون أن القادة المستكبرين غلبوهم في الآخرة كما غلبوهم في الدنيا، فقد غلبهم الملأ المستكبرون في الدنيا بما أغروهم به من وعودات كاذبة؛ كقولهم لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢].

فأطاعوهم واتبعوهم على الباطل، وغلبهم المستكبرون في الآخرة بأن كانوا سببًا في دخولهم النار، ولذلك يبدأون المحاجة متوسلين لهم بما وقع في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تأمروننا فنطيعكم، وتكلفوننا فننفذ ما تريدون، ولا نعصي لكم أمرًا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ كما كنتم تعدوننا في الدنيا بحمل أوزارنا وخطاياانا؟! فاحملوا عنا ولو جزءًا يسيرًا من العذاب،فرد عليهم المستكبرون

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣/ ٥٢،٥٣.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٧/ ٤٤٨.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ فلن يفيد تحملنا نصيبًا من عذابكم شيئًا؛ لأننا كلٌ في النار معذبون، وقد قضى الله تعالى وفصل بين العباد؛ أهل الجنة في الجنة ينعمون، وأهل النار في النار يعذبون.

إذن، هذه ثلاثة نماذج ضربها لنا القرآن لنأخذ منها العبرة والعظة، وهي متضمنة لحوار ومخاصمة وقعت بين المستضعفين والمستكبرين في نار جهنم، وكيف يلقي بعضهم اللوم على بعض، ويتوسل الضعفاء إلى الأكابر والرؤساء بأن يحملوا شيئًا من خطاياهم ولو قل، لكن دون جدوى، فنسأل الله تعالى السلامة.

عاقبة المستكبرين

قضى الله تعالى أن العاقبة للمتقين، والهلاك والخسران على الكافرين والمتكبرين والمجبرين، وأثبت الواقع هذه الحقيقة، ودلت الشواهد التاريخية على هذه السنة الإلهيةالجارية في هذا الكون، والقرآن حوى العديد من هذه الشواهد، وقد سبق الكلام عن استكبار بعض الأمم والأفراد في المبحث الخامس من هذا البحث، وتبينت لنا مواقف المستكبرين من الدعوات، وهاهنا نبين مشهد النهاية لهم في الدنيا والآخرة، وهذه بعض المشاهد أذكرها على سبيل المثال:

أولًا: هلاك المستكبرين من قوم نوح عليه السلام:

أخبرنا الله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه؛ حيث أرسله لينذر قومه من قبل أن يأتهم عذاب الله، فأمرهم أن يعبدوا الله ويتقوه، ويطيعوه عليه السلام فيما يبين لهم من شرائع الأحكام وسنن الهدى، ولم يدع عليه السلام وقتًا من الأوقات إلا ودعاهم فيه إلى الله؛ ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لكن قومه أبوا وأصروا على كفرهم وعنادهم واستكبروًا استكبارًا، كما أخبرنا عن ذلك القرآن الكريم، فقال تعالى شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ

﴿يَزِدْهُ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩].

فهل بعد هذا الكبرياء كبرياء؟! وهل هناك تمرد وعتو عن الطاعة بعد هذا التمرد والعتو؟! لقد مكث نوح عليه السلام يدعو قومه مئات السنين، فما آمن معه إلا قليل، ولذلك عاجلتهم عقوبة الله، ونزل بهم عذابه ونقمته.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾ [الأعراف:٦٤].

هذا عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥﴾ [نوح:٢٥].

قال الإمام السمرقندي: «﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ يعني: بشركهم بالله تعالى أغرقوا في الدنيا ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في الآخرة»(١).

فنالوا بكفرهم واستكبارهم عن الحق عذابي الدنيا والآخرة؛ فعذبهم الله تعالى بالغرق في الدنيا، وسيعذبون يوم القيامة في جهنم، هذا مصيرهم لكفرهم واستكبارهم.

(١) تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٠٨.

ثانيًا: هلاك المستكبرين من قوم صالح عليه السلام:

أرسل الله تعالى إلى ثمود نبيه صالح عليه السلام، مبلغًا ومرشدًا ونذيرًا، فأما الملأ المستكبرون من قومه فقد كان موقفهم من الدعوة موقف عداء ومعاندة، فعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف:٧٦-٧٩].

فأخبر الله تعالى أنه أنزل عليهم عذابه بسبب استكبارهم وعنادهم وعتوهم، فأخذهم بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، «وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الآخذ. ولا شك أن الله نجى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه... والجاثم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب... والمعنى أنهم أصبحوا جثثا هامدة ميتة على أبشع منظر لميت»(٢).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٢٧.

ثالثًا: هلاك المستكبرين من قوم هود عليه السلام:

بعث الله تعالى هودًا إلى قومه ليبلغهم رسالته ويعلمهم أمور دينهم، وجاءهم بآية بينة، فآمن معه فريق من قومه وكفر آخرون، فأما الكافرون فقد استكبروا في الأرض بغير الحق، وعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسوله، وغرتهم قوتهم فلم تغن عنهم من الله شيئًا، فكان استكبارهم ورفضهم دعوة الله سببًا في نزول عذاب الله عز وجل عليهم في الدنيا، وخلودهم في نار جهنم في الآخرة. وقد أخبرنا الله تعالى عن حالهم عند رفضهم دين الله وتكذيب رسله.

فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

فأخبر تعالى أنه أنزل بهم عذابه في الدنيا بسبب استكبارهم في الأرض بغير الحق، فأرسل عليهم ريحًا صرصرًا تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، إذلالًا لهم وإلحاق الخزي بهم في الدنيا، فلم تنفعهم قوتهم التي قد اغتروا بها، ولعذاب الآخرة أشد إيلامًا وأخزى.

رابعًا: هلاك المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام:

قوم شعيب عليه السلام هم أهل مدين الذي أرسل إليهم مبلغًا ومرشدًا، لكن المستكبرين من قومه رفضوا دعوة الله، واستكبروا عن عبادته والخضوع لأمره، وهموا بإخراج رسولهم والذين آمنوا معه بغيًا وعدوًا، واستهزأوا به وسخروا منه، ثم بالغوا في العناد والاستكبار فطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا في ادعائه الرسالة، فقالوا كما أخبر عنهم القرآن: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

وقال في موضع آخر: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، وقال أيضًا عنهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٧].

وهذا يدل على شدة كفرهم وعنادهم وعتوهم، لذا استحقوا عذاب الله تعالى، فأنزل عليهم سخطه وعذابه، فأصبحوا جثثًا هامدة بلا حراك، ونجى الله نبيه والذين آمنوا معه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود:٩٤].

وقال أيضًا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء:١٨٩].

قال ابن كثير: «﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدًا مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾»[1].

فهذا مصير كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فيهلكهم في الدنيا، ويعذبهم في الآخرة، وأما المؤمنون وأتباع الرسل عليهم السلام فينجيهم الله من عذاب الدنيا والآخرة، وهذه سنة الله في الكون، لا محيد عنها ولا محيص، تقررت في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٣].

وتقررت هذه السنة الإلهية في قوله تعالى كذلك: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية:٢٩-٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤٢].

فالعاقبة للمتقين، إنها سنة الله الحتمية، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٠-١٦١.

علاج القرآن للكبر

أيقنا بأن الكبر مرض عضال من أمراض القلوب، تظهر أعراضه على المتكبر في الدنيا والآخرة، لذا لا بد له من علاج كي يستقيم حاله وينصلح أمره، ولن تجد له وصفة علاج أمثل ولا أفضل من علاج القرآن والسنة؛ لأن الله أعلم بخلقه من أنفسهم، ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

وهذه بعض علاجات القرآن لمرض الكبر:

أولًا: معرفة الله:

إن الله له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وله الشرف الأتم الأسنى، تقدست أسماؤه، وعظمت صفاته، هو واحد أحد، فرد صمد، لا يشبهه شيء، ولم يكن له كفوًا أحد.

وإن من أسمائه جل في علاه (الخالق)، خلق الخلق عظيمه وحقيره، كبيره وصغيره، دقيقه وجليله، بنظام محكم متقن بديع، لا يسع الإنسان معه إلا أن يقف أمام هذه العظمة قائلًا: جلت عظمة الخالق، لا إله غيره ولا رب سواه، ثم يخر له ساجدًا خاضعًا ذليلًا.

إن المتكبر إذا علم صفات الله عرف حجمه ومكانته وموقعه، وأين هو في هذا الكون؟! وماذا يشكل فيه؟! فينقطع حينئذٍ عن كبريائه وتعاظمه، ويخضع فقط لعظمة الله، ويذل لجبروته وكبريائه سبحانه، ويأبى أن يكون كبيرًا على أحد أو أن يكون أحدٌ عليه كبير غير الله.

ثم إن من علمه بربه يقتضي أن لا يسيء الظن به، لأن إساءة الظن به جل جلاله تورد المهالك، وتسبب الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت:٢٣].

إن عادًا لما استكبروا في الأرض بغير الحق واغتروا بقوتهم، ذكرهم الله تعالى ببديع صنعه وعظيم خلقه، وكمال قوته؛ ليرجعوا عن عتوهم وكبريائهم، ويذلوا لعظمته وكبريائه سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

فهذه أول وأهم خطوة على سبيل علاج مرض التكبر؛ أن يتعرف العبد على الله تعالى.

ثانيًا: معرفة المتكبر لحقيقته ومصيره:

لا بد للمتكبر أن يلعم بأنه مخلوق من مخلوقات الله جل جلاله، خلقه من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين حقير،

فأصله من تراب، منه خلق وفيه يعود، ونسله من ماء مهين، يخرج من حيث يخرج البول، لذا فإن الله تعالى ذكر هذا الإنسان بأصله لما تكبر وتمرد على طاعة الله، وذهب إلى أهله يتمطى، فقال جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:٣٧-٣٩].

كما ذكره كذلك بأصل خلقته لما ضرب هذا المتكبر مثلًا، حين قال: من يحيي العظام بعد أن تصبح رميمًا.

قال جل جلاله :. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨-٧٩].

إن الله تعالى كما ذكر المتكبرين بمنشأهم ذكرهم كذلك بمآلهم، فبين لهم أنهم بعد هذه الحياة يموتون، وأنهم إلى التراب يصيرون، وفيه يعودون، فقهرهم بالموت، وكفى بالموت واعظًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:٢٥].

لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧].

ولم يقل: (ولا تمش مرحًا)؛ يذكر تعالى الإنسان شأنه بأصله الذي منه خلق وفيه يعود، وهو الأرض، فإذا تكبر فعلام يتكبر؟! أيتكبر على أصله الذي منه جاء وفيه يعود؟!

إن المتكبر إذا عرف هذه المعاني وأيقن بهذه الحقائق فلن يتكبر، ولن يتعاظم على الناس.

ثالثًا: الوعيد الشديد للمتكبرين:

إضافة إلى ما سبق فإن الله تعالى أعد للمتكبرين عذابًا شديدًا، فقال جل جلاله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)**(١).

وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)**(٢).

وقد رأينا في هذا البحث كيف كان مصير المستكبرين في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى، فليس بعد هذا الوعيد من وعيد، والعاقل من استفاد من تجارب السابقين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبدالله ابن مسعود.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني.

فهذه ثلاث طرق لعلاج الكبر مستوحاة من كتاب الله تعالى وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن المتكبر حال تلبسه بكبريائه يغيب عن باله عظمة الخالق سبحانه، وينسى أصله وحقيقته ومآله، ويتجاهل ما ينتظره من العذاب الشديد، ولو استحضر هذه أمامه لما تكبر على خلق الله، ولا تعالى على عباده.

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الذل، العجب، الغرور